الكلام النفسي في اللغة

ليس المقصود من هذا المقال نصرة رأي عقدي على رأي عقدي آخر ، وإنما المقصود منه تحرير مسألة لغوية : هل يصح أن يُقال عن حديث النفس : كلام . لأن ذيول هذه المسألة كثيرة جدا ، ولا يمكن الانتصار لقول فيها على قول بذكر جانب واحد من جوانب الحجاج فيها.

وأبدأ أولا بالتذكير أن حديث النفس هو كلام النفس !

فعبارة (حديث النفس) هي نفسها تدل على صحة إطلاق الكلام على الكلام النفسي؛ لأن (الحديث) في أشهر دلالاته في اللغة هو (الكلام) ، وهذا باتفاق أئمة اللغة ، ومما يعرفه الناس من قطعيات اللغة : أن الحديث هو الكلام ، وأن : حدّث يحدث حديثا ، هو بمعنى : تَكلَّمَ يتكلّم كلاما . فـ(حديث النفس) سيكون بمعنى (كلام النفس) من غير نطق باللسان .. سواءً بسواء .

ومن ذلك حديث صحيح مسلم : من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قال الله عز وجل: إذا تحدَّث عبدي بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ...»، أي حدث نفسه بالعمل .

وفي الصحيحين : «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»، والمقصود : إن الظن أكذب حديث النفس للنفس ، أي كلام النفس للنفس .

وفي الأثر الحسن إسناده : «عن ابن عمر ، قال: كنت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حج ، أو عمرة ، فإذا نحن براكب ، فقال عمر رضي الله عنه: " أرى هذا يطلبنا " ، قال: فجاء الرجل فبكى ، قال: " ما شأنك ، إن كنت غارما أعناك ، وإن كنت خائفا أمناك إلا أن تكون قتلت نفسا فتقتل بها ، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم " ، قال: إني شربت الخمر ، وأنا أحد بني تيم ، وإن أبا موسى جلدني ، وحلقني ، وسود وجهي ، وطاف بي في الناس ،

وقال: لا تجالسوه ، ولا تؤاكلوه ، **فحدثت نفسي بإحدى ثلاث**: إما أن أتخذ سيفا فأضرب به أبا موسى ، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفونني ، وإما أن ألحق بالعدو ، وآكل معهم وأشرب ، قال: فبكى عمر رضي الله عنه وقال: " ما يسرني أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا ، وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية ، وإنها ليست كالزنا " ، وكتب إلى أبي موسى: سلام عليك ، أما بعد ، فإن فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا ، وايم الله لئن عدت لأسودن وجهك ، ولأطوفن بك في الناس ، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول لك فعد ، فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه ، وإن تاب فاقبلوا شهادته "». أخرجه عمر بن شبه في أخبار المدينة ، والبيهقي في الكبرى .

فقوله : (فحدثت نفسي) بمعنى : قلت لها .

وأما استدلال ابن تيمية في التفريق بين حديث النفس والكلام بحديث الصحيحين : «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم» ، وأن الحديث قد فرق بين حديث النفس والكلام ، ، فهو كلام ضعيف ؛ لأن الحديث فرق بين حديث النفس وحديث اللسان ، وإلا لصح أن يُزعم أن حديث النفس ليس عملا ، وسيأتي أنه من عمل القلب . ولذلك صح هذا الحديث بلفظ آخر يبين المقصود ، وهو أن النبي ﷺ قال : «تجاوز الله عن أمتي ما حدثت به أنفسها ، ما لم ينطق به لسان ، أو تعمله يد». وهو إن لم يكن اللفظ النبوي ، فهو رواية بالمعنى ، تبين فهم السلف للحديث . فالحديث قد صَحَّحَ تسمية حديث النفس كلاما ؛ لأن الحديث هو الكلام ، والإضافة لم تغير شيئًا من هذه الدلالة ؛ لكنه فَرَّقَ بينهما في الأحكام .

وكذلك استدلاله بأن الفقهاء أجمعوا في مواطن على التفريق بين أحكام حديث النفس وأحكام الكلام : فشيء لا علاقة له في التفريق بين صحة إطلاق الكلام على حديث النفس ؛ لأنهم يتحدثون عن الفرق شرعا بين حكم كلام النفس وحكم كلام اللسان .

ولا أدري كيف يُدفع معنى الكلام عن (حديث النفس) ؟! وكون (الحديث) هو (الكلام) في قطعية دلالة اللغة عليه هو من الأمر الذي لا يمكن دفعه ، كما سبق التنويه به .

وأما إطلاق الكلام والقول والذِّكْر على حديث النفس فهو ثابت في عدد من أدلة الوحي في الكتاب والسنة :

ففي الكلام :

في صحيح البخاري : حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا عن قصة السقيفة : «وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاما قد أعجبني، خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس».

وقد احتج به الإمام البيهقي للكلام النفسي ، في كتاب (الأسماء والصفات).

وفي القول :

يقول تعالى ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ، قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان في تفسير هذه الآية : « فهذا ما في عمل القلب»، وذهب بعض المفسرين أن معناها : يقول بعضهم لبعض . وعلى القول الأول : سمى الله تعالى حديث النفس قولا ، ولا رأى أبو عبيد – على إمامته في اللغة – ما يمنع من هذا التفسير في اللغة .

وفي الصحيحين : في قصة تخلف كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن غزوة تبوك ، قال : «فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد». وفيها أيضا : يقول كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ : «ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ حتى كملت خمسون ليلة».

وفي صحيح البخاري : في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا عن حادثة السقيفة أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ ، قال : «وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم، قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري، إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت».

وقد احتج به الإمام البيهقي للكلام النفسي ، في كتاب (الأسماء والصفات).

وفي صحيح البخاري : عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله»، فبكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقلت في نفسي ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «يا أبا بكر لا تبك، إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»

وفي صحيح البخاري : عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة له، فانطلقت، ثم رجعت وقد قضيتها، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فسلمت عليه، فلم يرد علي، فوقع في قلبي ما الله أعلم به، فقلت في نفسي: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد علي أني أبطأت عليه، ثم سلمت عليه فلم يرد علي، فوقع في قلبي أشد من المرة الأولى، ثم سلمت عليه فرد علي، فقال: «إنما منعني أن أرد عليك أني كنت أصلي».

وفي صحيح البخاري : من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «إن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقصونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله، وأنا غلام حديث السن، وبيتي المسجد قبل أن أنكح، فقلت في نفسي: لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء ...».

وفي صحيح في مسلم : قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فكنت أنا أول من حياه بتحية الإسلام، قال فقلت: السلام عليك يا رسول الله فقال: «وعليك ورحمة الله» ثم قال «من أنت؟» قال قلت: من غفار، قال: فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته، فقلت في نفسي: كره أن انتميت إلى غفار؟...».

وفي صحيح مسلم : من حديث عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟»، فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ...».

قال القرطبي في المفهم : «(قوله: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ !) أي: أقالها بقلبه، وتكلم بها مع نفسه، ففيه: دليل لأهل السنة على أن حديث النفس كلام وقول».

وفي الذِّكر :

في الصحيحين : عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة ".

وازنوا هذا برد ابن تيمية الضعيف ، حيث قال : «وقول عمر : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : "زورت في نفسي مقالة أردت أن أقولها" حجة عليهم . قال أبو عبيد: التزوير: إصلاح الكلام وتهيئته ، قال: وقال أبو زيد: المزور من الكلام والمزوق واحد وهو المصلح الحسن، وقال غيره: زورت في نفسي مقالة أي هيأتها لأقولها.

فلفظها يدل على أنه قدّر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله ، فعُلم أنه لا يكون قولا إلا إذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قولا ، لكن كان مقدرا في النفس يُراد أن يقال ، كما يقدر الإنسان في نفسه أنه يحج وأنه يصلي وأنه يسافر إلى غير ذلك فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة في النفس ، ولكن لا يسمى قولا وعملا إلا إذا وُجد في الخارج ، كما أنه لا يكون حاجا ومصليا إلا إذا وُجدت هذه الأفعال في الخارج .

ولهذا كان ما يهم به المرء من الأقوال المحرمة والأفعال المحرمة لا تكتب عليه حتى يقوله ويفعله ، وما هم به من القول الحسن والعمل الحسن إنما يكتب له به حسنة واحدة ، فإذا صار قولا وفعلا كتب له به عشر حسنات إلى سبعمائة وعوقب عليه – إذا قال أو فعل – كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " {إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل} ".

وأما البيت الذي يحكى عن الأخطل أنه قال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فمن الناس من أنكر أن يكون هذا من شعره. وقالوا: إنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه، وهذا يروى عن محمد بن الخشاب. وقال بعضهم: لفظه: إن البيان لفي الفؤاد . ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في " الصحيحين " عن النبي صلى الله عليه وسلم لقالوا: هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ولا تلقاه أهل العربية بالقبول ، فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة ، فضلا عن مسمى الكلام».

والجواب عن هذا الكلام :

١-كلام أبي عبيد وأبي زيد لا علاقة له بمحل النزاع أصلا .

٢-يقول ابن تيمية : « فلفظها يدل على أنه قدّر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله ، فعُلم أنه لا يكون قولا إلا إذا قيل باللسان..»، بل بلفظها يدل بمقتضى دلالة اللغة أن الكلام المقدر في النفس يقال له قول ومقالة ؛ لأن (مقالة) مفعولُ (زورتُ في نفسي)، فسمى المزوَّر في نفسه مقالة، فهذا هو ظاهر اللفظ الذي لا صارف عن دلالته . وأما قوله (أردت أن أقولها) فليس مبطلا دلالة العبارة الأولى ، وإنما أراد : أردت أن أتلفظ بها ، كما لو قال قائل : (قلت لصاحبي مقالة ، وأردت أن أقولها للناس كلهم)، أو : (همست لصحابي بمقالة ، ووددت أن أقولها علانية)، لم يعن شيءٌ من ذلك أن المقالة الأولى لم تكن قولا .

ثم إن أمكن تأويل ابن تيمية للمقالة بهذا التأويل في حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم السقيفة،

لأنه قال : «أردت أن أقولها»، فما قوله في العديد من النصوص التي أُطلق فيها القول على حديث النفس وحده ، مما سبق بعضه ؟!

٣-وأما قوله : «كما يقدر الإنسان في نفسه أنه يحج وأنه يصلي وأنه يسافر إلى غير ذلك فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة في النفس ، ولكن لا يسمى قولا وعملا إلا إذا وُجد في الخارج». فهو احتجاج بمحل النزاع ، وقياس القول على الفعل قياس مع الفارق، وهو الفرق بين القول وعمل بقية الجوارح ، وبين عمل القلب وعمل الجوارح .

بل اتفق العلماء على أن للقلب أعمالا (كالمحبة والخوف والرجاء)، وأن النية عمل القلب .

وقد قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الإيمان : «وإنما أعطى الله كل جارحة عملا لم يعطه الأخرى ، فعمل القلب: الاعتقاد ، وعمل اللسان: القول ، وعمل اليد: التناول، وعمل الرِّجْل: المشي ، وكلها يجمعها اسم العمل . فالإيمان على هذا التناول إنما هو كله مبني على العمل، من أوله إلى آخره ، إلا أنه يتفاضل في الدرجات على ما وصفنا .

وزعم من خالفنا أن القول دون العمل ، فهذا عندنا متناقض ، لأنه إذا جعله قولا فقد أقر أنه عمل ، وهو لا يدري بما أعلمتك من العلة الموهومة عند العرب في تسمية أفعال الجوارح عملا ، وتصديقه في تأويل الكتاب في عمل القلب واللسان ، قول الله في القلب﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، وقال﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، وقال﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد ، وهي القلب". وإذا كان القلب مطمئنا مرة ، ويصغي أخرى ، ويوجل ثالثة، ثم يكون منه الصلاح والفساد ، فأي عمل أكثر من هذا؟

ثم بين ما ذكرنا قوله ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فهذا ما في عمل القلب . وأما عمل اللسان ، فقوله ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾، فذكر القول ثم سماه عملا ، ثم قال ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هل كان

عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم إلا دعاءه إياهم إلى الله ، وردهم عليه قوله بالتكذيب، وقد أسماها هاهنا عملا؟ ...»، إلى آخر كلامه .

فإذا صح أن للقلب عملا ، فكيف لا يكون له قول ، والقول من جملة الأعمال . حيث إن القول عمل اللسان ، وقد سماه رسول الله ﷺ عملا : ففي الصحيحين : عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له بها مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، كانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر».

قال القرطبي في المفهم : « و(قوله: إلا أحد عمل أكثر من ذلك) أي: قال، فسمى القول عملا، كما قد صرح به في الرواية الأخرى».

وقد سمى الله تعالى القول فعلا في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

وقد ناقش ابن رجب مسألة دخول الأقوال في الأعمال ، وصحح دخولها . حيث قال: «وهذا كله يدل على أن الأقوال تدخل في الأعمال ويعتبر لها النية. ومسألة الطلاق المذكورة فيها عن أحمد روايتان – أيضا.

وقد خرج أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب " الطلاق " له بدخول القول في العمل، وأن الأقوال تدخل في قوله صلى الله عليه وسلم " الأعمال بالنيات "

وأبو عبيد محله من معرفة لغة العرب المحل الذي لا يجهله عالم ...»، إلى آخر كلام ابن رجب.

وهي مسألة مشهورة : دخول القول في العمل والفعل .

والاستدلال بالتفريق في الجزاء (ثوابا وعقابا) بين عمل القلب وعمل الجوارح على نفي تسمية الكلام المهيَّأ في النفس كلاما وقولا استدلالٌ لا علاقة له بالمستدلّ عليه ؛ لأن الجزاء لم يُبن على التفريق في الإطلاق ، وإنما بُني على أمرين :

- على ما يدخل في الوسع وما لا يدخل .
- وعلى كرم الله وفضله وتخفيفه على عباده .

فما علاقة ذلك بنفي تسمية كلام النفس كلاما وقولا .

٤-وأما رده الاحتجاج بالبيت المنسوب للأخطل ، فليس في عدم صحة نسبته إليه ما ينفي أنه بيت قيل في عصر الاحتجاج ، وهو ظاهر قصة وروده ، وهي القصة التي أسندها البَلاذُري في كتابه : أنساب الأشراف – ترجمة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان -: القسم الرابع ، الجزء الثاني (٥٨١).

وانظر : البيان والتبين للجاحظ (١/ ٢١٨)، والموشى للوشاء (٨).

وكون الأخطل نصرانيا أو مسلما لا ينفي عنه أنه حجة في اللغة (كما قد توحي به سياقات جدل بعضهم)، وإلا لكان شعراء الجاهلية كلهم لا حجة في شعرهم ؛ لأنهم جاهليون !! بل ما فُهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ بدلالةِ لغةٍ إلا بلغة من خُوطِبوا بهما من كفار العرب (وثنيّهم قبل كتابيّهم)!!

فإن قيل : إن ابن تيمية لا يمنع من إطلاق الكلام على الكلام النفسي ، لكن يشترط وورود قيد يدل على ذلك في السياق الذي أريد بالكلام فيه الكلام النفسي ، كعبارة (حديث النفس)، و(وزورت في نفسي)ونحو ذلك ؟

قلت : له كلام بخلاف ذلك :

- كقوله عن حديث : «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به» : « ففرّق بين حديث النفس وبين الكلام ، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء. فعُلم أن هذا هو الكلام في

اللغة؛ لأن الشارع – كما قُرر – إنما خاطبنا بلغة العرب».

- وكتعليقه السابق على حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ : «زورت في نفسي مقالة أردت أن أقولها» ، عندما قال : «فلفظها يدل على أنه قدّر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله ، فعُلم أنه لا يكون قولا إلا إذا قيل باللسان»، فهذا كلام من ينكر صحة التعبير عن حديث النفس بالكلام ، حتى لو جاء في النص نفسه التقييد ، كقوله : «زورت في نفسي».

وأما لو قال ابن تيمية : إني لا أمانع من إطلاق الكلام على حديث النفس ، لكني أشترط لحمله على ذلك وجود قرينة دالة عليه في الكلام نفسه ، كالتقييد الصريح . فقد انتقل الكلام عندها من إنكار إطلاق الكلام على حديث النفس ، إلى تجويزه بشرط القرينة ، وعندها سيكون التشنيع المطلق على من صَحَّحَ التعبيرَ بالكلام على الكلام النفسي في اللغة إنكارًا وتشنيعًا في غير محله .

وعندها أيضًا سينتقل البحث من كونه لغويا إلى كونه عقديا ؛ لأن المخالف لابن تيمية لا يعارض في كون الكلام إذا أُطلق على البشر والمخلوقين حُمل منهم في الغالب على نطق اللسان ، وأنه من المخلوقين عند الإطلاق يُراد به كلام اللسان . هذا لا يعارض فيه أحد ؛ لأن هذا هو الغالب في استعماله في وصف نطق اللسان عند الخلق . لكنهم يعارضون في أن كلام الخالق (عز وجل) يلزم أن يكون كذلك ، يعارضون في وجوب حمل كلام الخالق على معهود الكلام إذا أُطلق على المخلوقين . ويقول المعارضون : ما دامت صفة كلام الخالق ليست من جنس صفة كلام المخلوقين، وليس كمثل صفة الخالق عز وجل شيء ، فيجب أن تُحمل الصفة على ما يليق بتنزه صفات الله تعالى عن الحدوث؛ لأن صفات الخالق لا يمكن أن تكون حادثة ؛ لأن الحادث مخلوق ، وهنا يتشعب البحث العقدي حول مسألة حلول الحوادث بالله تعالى . وهكذا يتبين كيف انتقل البحث من كونه لغويا ، إلى كونه عقديا ، وبان أن الإنكار اللغوي لم يعد له وجود.

ويزيد هذا الأمر بيانا : أنه لو انحصر الجدل في غلبة الاستعمال العربي وقلته لـ(الكلام)،

ولو تمّ الاتفاق على أن (الكلام) في لغة العرب يُعبَّر به عن نطق اللسان وعن حديث النفس معًا، ولكن غلب استعماله في نطق اللسان ، مما أوجب عدم حمله على الاستعمال الأقل إلا بقرينة، لو كان هذا هو حقيقة خلاف ابن تيمية مع غيره ، لكان الواجب أن ينحصر جدله في صحة القرينة من عدم صحتها ، لا في إنكار أن يكون حديث النفس كلاما ، كما في عباراته السابقة .

وبهذا تبين ضعف جواب ابن تيمية من جهة اللغة ، وأن أدلة الوحي صححت إطلاق الكلام على الكلام النفسي .

وكتب

أ.د الشريف حاتم بن عارف العوني

في ١٢/ ١١/ ١٤٤٢هـ